

## العمارة في العصر المملوكي والعثماني

### أولاً- العمارة في العصر المملوكي:

بعد الأيوبيين جاء عهد المماليك الذين اشتركوا في الجهاد ضد الحملات الصليبية على فلسطين، التي أصبحت مقاطعة تابعة للمماليك بعد سقوط الدولة الأيوبية. لذلك تأثر الطراز المملوكي أيضا بالحرب وإن كان بدرجة أقل، لأن أهداف الحرب كانت قد تحققت والقدس تحررت في عهد صلاح الدين الأيوبي. ازدهر فن العمارة الإسلامية في عصر المماليك مرة أخرى بعد تكشف ظلام الحرب وبنيت الكثير من المساجد والمدارس والأضرحة. ظل هناك بعض تأثير الحروب على العمارة في عصر المماليك، لأن أوروبا أرسلت حملات صليبية إلى مصر، فبقيت المساجد والمدارس محصنة ومجهزة لمواجهة أي اعتداء أو حصار.

ولما حكموا البلاد أعطوا أنفسهم حق المستوى الأرفع من الناس، فنجد اختلافا كبيرا بين المنشآت سواء دينية أو دنيوية، التي أنشئت للعامة وتلك التي أنشئت للمماليك متميزة وفنية. وتميز عصر المماليك بثراء في فنون الديكور وأعمال المعادن والخشب والفسيفساء، خاصة في عمل المنابر والثريات.

### أ- أهم المنشآت المعمارية المملوكية في بلاد الشام:

- الأبواب والتحصينات: منها باب المقام وباب النيرب
- المساجد: جامع الأطروش.
- الأضرحة والمقامات: ضريح شهاب الدين أحمد وضريح أوغول بك، ضريح خاير بك.
- الحمامات: أشهرها حمام يلغا الناصري بحلب

- الخانات: خان القصابية وخان خاير بك وخان الوزير.
- البيمارستانات: البيمارستان الأرغوني الكامل.
- المدارس: المدرسة الطرنطائية.

#### ب- أهم المنشآت المعمارية المملوكية في مصر:

- جامع السلطان الظاهر بيبرس.
- جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة.
- جامع السلطان حسن.
- مسجد وضريح السلطان قايتباي.
- مسجد وضريح وخانقاه السلطان برقوق.

#### مميزات وسمات العمارة في العصر المملوكي:

- 1- استمر الشكل التقليدي للمسجد: صحن جنوبيه القبليه وتحيط به أروقة من الشرق والغرب والشمال في معظم المساجد التي أنشئت في حلب وكذلك المدارس، إذ صارت المدارس تستعمل كمساجد أيضا في هذا العصر، أما في دمشق فقد ألغي الصحن في بعض المساجد والمدارس وسقفت في بعضها الآخر.
- 2- تفتح أبواب المنشآت ضمن إيوان، سقفه في معظمها نصف قبة مقرنصة في قمتها ما يشبه الصدفة.
- 3- حفلت الواجهات الخارجية بالزينة والزخرفة بالزخارف الحجرية، وساد التناوب بين الأبيض والأسود ومعهما الأصفر أحيانا، وهذا التناوب ربما يشمل الواجهة بكاملها، كما هو الحال في معظم مباني هذا العصر بدمشق، أما حلب فاقتصر التناوب اللوني على أكتاف الأبواب والنوافذ، ومنحت الزخارف الحجرية النباتية والهندسية عناية كبيرة، خاصة حول الأبواب والنوافذ.
- 4- تركت الواجهات الداخلية بسيطة خالية من الزخارف، وبنيت من الحجر المنحوت.
- 5- استعملت المزمررات الملونة كعنصر تزييني فوق نجفات النوافذ والأبواب، مع الاستمرار في استعمال الأقواس العاتقة التي ظهرت في العصور السابقة.

6- ظهر في هذا العصر القوس المدبب المسنن، والقوس المزين باطنه بالزخارف الحجرية، والقوس الثلاثي الفصوص المزدوج، واستعمل القوس ذو المراكز الأربعة في النوافذ العليا لغرض تزييني.

7- غلب على تيجان الأعمدة النوع المقرنص، الذي بدأ يظهر في العصر الأيوبي، ولم يعد يستعمل التاج الكورنثي. مع الإشارة إلى أن الاعتماد على الأعمدة الحجرية الدائرية قل في هذا العصر، وانتشر الاعتماد على الدعائم المربعة المبنية بالحجارة لحمل الأقواس والسقوف.

8- شاع استعمال القبو المتقاطع كثيراً في التسقيف بدلاً من القبو المهدي، وكثر استعمال القباب المدببة وفي دمشق عرفت السقوف الخشبية المستوية المزخرفة.

9- انتشرت المآذن المثلثة على نطاق واسع، وأقيمت على قاعدة مربعة حتى مستوى السطح، مع الابتعاد عن المآذن المربعة المقطع، وعلى الرغم من أن المآذن الدائرية ظهرت في فترة مبكرة من هذا العصر إلا أنها لم تنتشر، وبقيت معدودة، وبنيت المآذن في حلب بالحجر الكلسي الأبيض والأسود وزخرفت بزخارف حجرية منحوتة بالحجر جميلة جداً، بينما في دمشق أعتمد على التنوع اللوني (الحجر الأبيض والأسود) في زخرفة المآذن.

## ثانيا- العمارة في العصر العثماني:

بعد الخلافة العباسية، كانت الدولة العثمانية أول خلافة إسلامية اتحدت في ظلها معظم المقاطعات الإسلامية، من أقصى المغرب إلى الشرق الأوسط. والعثمانيون أتراك من أصل سلجوقي من وسط آسيا، بعد استقرارهم في آسيا الصغرى، احتفظ الأتراك بالقسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية إثر سقوطها في أيدي المسلمين، وأطلقوا عليها اسم اسلامبول أي "مركز الإسلام" في اللغة التركية القديمة، وتعرف الآن باسم اسطنبول.

أنشأ العثمانيون حضارة غنية ثقافيا وعلميا ودينيا، وكانوا امتدادا لبلاد السلاجقة في العراق وبلاد الشام. لذا تأثرت العمارة العثمانية بالسلاجقة حتى تطابقت القباب والمآذن في الطرازين العثماني والسلجوقي، ولكن العمارة العثمانية كانت أكثر سحرا وثراء لتنوع المصادر، كما كان الاختلاف في الشكل الداخلي للمساجد.

كان العثمانيون يتوغلون في مناطق أوروبا الغربية، وفي تلك الأثناء تبنوا بعض الفنون المسيحية المختلفة، وكان أهم هذه الفنون فن زخرفة الأسقف والقباب من الداخل في المساجد. حتى أنه يمكننا رؤية التشابه الواضح بين مساجد العثمانيين والكنائس والكاتدرائيات في أوروبا المسيحية.

كان العثمانيون قد وصلوا إلى بلاد البلقان وهناك أقاموا مساجد أقل زخرفة من الداخل، ومشابهة لمساجد السلاجقة القديمة بها مأذنة واحدة، وتتوسطها قبة واحدة كبيرة بلا زخارف داخلية. برع العثمانيون في الأعمال الخشبية والصناعات المعدنية وصناعة السجاد، وظهرت براعتهم وموهبتهم في الأعمال الخشبية، في منابر المساجد التركية الرائعة. أفضل الأمثلة للمساجد العثمانية في تركيا مسجد السلطان أحمد ومسجد السليمانية.

وكانت أكثر المباني شيوعا في العمارة الإسلامية: المدرسة والضريح والخانكة والسبيل والخان والسوق والحمام والقصر. كان كل سلطان في البلاد الإسلامية ينشأ مجمعا كبيرا يحمل اسمه ويحوي خانقاه والمدرسة والمسجد والسبيل، وأحيانا كان السلطان يدفن في هذا المجمع.

#### أولا- أهم المنشآت المعمارية العثمانية في بلاد الشام ومصر:

- المساجد: جامع محمد علي بالقاهرة، ومجموعة درويش باشا المعمارية بدمشق، ومسجد العادلية والخسروية في حلب.
- المدارس والأضرحة: المدرسة الرضائية والخسرونية بحلب.
- القصور: قصر العظم بدمشق ودار غزالة وجنبلاط وأجقباش في حلب.
- التكايا: وأهمها التكية السليمانية بدمشق.

مميزات وسمات العمارة في العصر العثماني:

- 1- ظهور المسقط الأفقي المربع للقبليّة ذي المساحة الأفقية الكبيرة والخالية من الأعمدة.
- 2- ظهور المسقط الأفقي ذي الدعامات الأربعة بمساحة كبيرة في الوسط ومساحات صغيرة حولها.
- 3- ظهور المسقط الأفقي الكثير الأضلاع (المسدس).
- 4- استمرار المساقط الأفقية والتقليدية في معظم المساجد مع غلبة القبليّة ذات المجاز الواحد والفتحات الثلاث.
- 5- ظهور الإيوانات داخل القبليّة والمحاريب الصغيرة في جدارها الجنوبي.
- 6- بناء رواق أمام القبليّة، داخله ممر إلى القبليّة على جانبيه مسطبتان مرتفعتان.
- 7- بناء القبليّة ككتلة معمارية مستقلة عن السياج الخارجي، وتحيط بها الباحات والحدائق.
- 8- انفتاح القبليّة على ما حولها بنوافذ كثيرة وكبيرة عليا وسفلى.
- 9- تزيين الواجهات الداخلية بالزخارف الحجرية والألوان المتناوبة (أبيض وأسود) وهذا ما يسمى بالأبلق، وإن كانت ظاهرة الأبلق محدودة في "حلب"، فقد كانت ميزة رئيسية في مباني دمشق.
- 10- استعمال الأقواس ذات المراكز الأربعة لأغراض معمارية وإنشائية، (حاملة للقباب، وفي الأروقة والنوافذ، و أقواس عاتقة) ولكن هذا لم يكن على حساب الأقواس المدببة التي ظلت شائعة بل ومسيطرة.
- 11- استعمال القباب الكبيرة لتغطية مساحات واسعة بدون أعمدة وسطية، مع تصفيح القباب بالرخام من الخارج، ودهانها برسومات نباتية وهندسية ملونة من الداخل.
- 12- استعمال السقوف جذع الهرم، والسقوف على جسور الحديد والسقوف الخشبية، مع استمرارية وسيادة القبو المتقاطع والمهدي، والقباب الصغيرة على رقبات أو بدونها.
- 13- ظهور الرقبات الدائرية من الداخل ذات البروزات والدعامات من الخارج، والرقبات (16 ضلعاً)، مع استمرارية الرقبات (12 ضلعاً) وأحياناً المثلثة.
- 14- ظهور المآذن الكثيرة الأضلاع (16 ضلعاً) بشرفة وبدون مظلة، ونهاياتها مخروطية مصفحة بالرخام، ولكن في عدد محدود من المساجد، وظلت المئذنة المثلثة بالشرفة والمظلة هي السائدة، وفي دمشق امتازت مآذن العصر العثماني بتناوب الحجر الأبيض والأسود في مداميك المئذنة.

- 15- بناء المئذنة كجزء من القبليّة في بعض المساجد، بدلاً من توضعها على السياج الخارجي للمسجد كما كان سائداً في العصور السابقة.
- 16- بناء المحاريب المضلعة التي تملأ طاستها المقرنصات.
- 17- جعل السدة جانبية (في الزاوية الشمالية الغربية من القبليّة) على يمين المدخل، بدرج حجري داخلي في بعض المساجد، مع سيادة السدة التقليدية فوق المدخل الأوسط للقبليّة.
- 18- جعل المساجد الجامعة ضمن المدارس أو التكايا، إذ يحاط الصحن بـ(3 أروقة) كثيرة الفتحات في الشرق والغرب والشمال، سقف كل فتحة منها قبة نصف كروية تستند مباشرة إلى الجدران والأقواس، وتتوزع خلف الأروقة غرف صغيرة للطلبة، ومطابخ.
- 19- استعمال القاشاني وللمرة الأولى في مساجد حلب ومدارسها، لإكساء المساحة بين نجفة النوافذ والأقواس العاتقة من الداخل والخارج، وجعلت أرضية ألواح القاشاني باللون الأبيض، مع رسومات نباتية ذات اللون الأزرق بتدرجاته المختلفة، ووسط المساحة آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو أقوال مأثورة أو أشعار، كما استعمل القاشاني لإكساء بعض المداميك العليا تحت الشرفات في المآذن.

د. عبير شدود